قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

إتيقا السعادة وفلسفة الخلاص عند "لوك فيري"

The ethics of happiness and the philosophy of salvation of "Luc ferry"

ابتسام حاج شريف [1،*]، عبد القادر شارفي [2]
[1] جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، مخبر المجتمع ومشاكل التنمية المحلية، الجزائر.
[2] جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، مخبر المجتمع ومشاكل التنمية المحلية، الجزائر.

Key words:

luc ferry

ethic

moral

salvation

happiness.

Abstract

It has become known to those interested in contemporary philosophy that there is an unprecedented reactivation of ephemeral discourse, this is because the real crisis of today's human beings has been primarily protective, the fact that today we are hitting a reality that collapsed before him most of yesterday's constants and the loss of cosmic idealism, as a step towards rejuvenating the language of dialogue and enhancing the channels of human communication, the intellectuals and philosophers of Europe and "Luc Ferry" have endeavored to limit them, those who have sought to activate the possibility of living together and happy in a peaceful framework and renounce the scenes of violence.

The task of today's thinkers is to restore humanity out of a spiral of crisis and ridding the individual of the illusion of ideological and dogmatic interpretations that are one of the reasons for intellectual retroactivity this violence and a vivid example of it, while achieving his happiness and salvation is only by mental means alone, foremost among which is philosophical thinking, this particular trend resonates with the new French philosophy, headed by the French philosopher "Luc Ferry", thus through this paper, we aim to highlight his perception of the contemporary western situation, to make philosophy as a secular alternative a sacred place and a human path of salvation, and to consider religion as a narrow individual practice far from the pattern of contemporary thinking.

معلومات المقال

تاريخ المقال:

الإرسال: 2022-07-02

القبول : 2023-01-19

الكلمات المفتاحية:

لوك فيري

إتيقا

أخلاق

الخلاص

السعادة.

ملخص

بات معلوما لدى المهتمين بالفلسفة المعاصرة أن هناك إعادة تفعيل للخطاب الإتيقا على نحوٍ غير مسبوق، ذلك أن التأزم الحقيقي الذي أصاب الإنسان المعاصر كان على صعيد إتيقي بالدرجة الأولى، كوننا اليوم نصطدم بواقع انهارت أمامه جل ثوابت الأمس وفقدت المثاليات الكونية حظوتها، وكخطوة نحو تجديد لغة الحوار وتعزيز قنوات التواصل الإنسانية نجد سعي حثيث للمفكرين والفلاسفة في أوروبا، ويعد "لوك فيري" واحدا من هؤلاء الذين سعوا إلى تفعيل إمكانية العيش المشترك والسعيد في إطار سلمي ونبذ مشاهد العنف.

إن مهمة المفكرين اليوم هي انتشال الإنسانية من دوامة التأزم وتخليص الفرد من وهم التفسيرات والدوغمائية التي تعد سبب الرجعية الفكرية والمحور الرئيس في هذا العنف، في حين أن تحقيق سعادته وخلاصه لا يكون إلا بالوسائل العقلية وحدها، وهذا التوجه يجد له صدى لدى الفلاسفة الفرنسيين الجدد وعلى رأسهم الفيلسوف الفرنسي "لوك فيري"، وعليه فإننا نهدف من خلال هذه الورقة إلى إبراز تصوره عن الوضع الغربي المعاصر، في جعل الفلسفة كبديل علماني مكان المقدس وسبيل إنساني للخلاص، واعتبار الدين كممارسة فردية ضيقة بعيدة عن نمط التفكير المعاصر.

* Corresponding author at : University hassiba Benbouali of Chlef, ALGERIA.
Email : i.hadjcherif@univ-chlef.dz

1. مقدمة

في زمن الاستهلاك الجماهيري حدثت قطيعة مع الأعراف التي كانت سائدة في القرنين السابع والثامن عشر أين برز ذلك واضحا في خلال التنشئة الاجتماعية والفردية، وخلق تغيرا غير مسبوق على مستوى النمط المعيشي.

إن هذا التحول لازال مستمرا إلى اليوم مكونا مرحلة جديدة في تاريخ الفردانية الغربية، كونها عُرفت سابقًا أنها مجتمعات ايديولوجية صارمة، لكنها صارت في الوقت الراهن مجتمعات قائمة على الإعلام وإثارة الحاجات وتقديس الإنسان، مع قدر أقل من الصرامة والإكراه وكثير من الاستقلالية وتعدد ملفت للخيارات الخاصة، أين بات الحديث عن أفول قيم عصر الأنوار حالة ملازمة للمجتمعات البعد حداثية وأمرا شائعا في أوساطها الثقافية، إلى جانب غياب تام للحظوة الدينية في مداراتها الفكرية لصالح مجتمع طغت فيه القيم الاستهلاكية النهمة مدعمة إياها الموجة التقنية جنبا إلى جنب مع حظوة الرأسمالية.

هذه النظرة القيمية للمجتمعات الغربية على أنها مجتمعات مادية ليست جديدة عليها إذ سبق للفيلسوف الألماني (فريدريك نيتشه / Friedrich Nitzshe 1844- 1900 م) أن أشار إليها في مؤلفاته مرتئيا أن المجتمعات الغربية منذ عصره تسير نحو انحطاط وعدمية، أين استمرت هذه الذهنية التفكيكية والعدمية للقيم ووجدت لها انتشارا وقبولا واسعا خاصة في ألمانيا وفرنسا، غير أن جمعا من الفلاسفة الفرنسيين الجدد على شاكلة: (برنار هنري ليفي Bernard-Henri Lévy / 1948م)، (لوك فيري luc ferry/ 1951م) و(أندري كومت سبونفيل André/ comte - Sponville 1952م)،... وآخرون، ممن ثاروا على نهج فلاسفة الستينات أمثال: (جان بول سارتر / jean paul sartre 1905- 1980 م)، (جيل دلوز / Gilles Deleuze 1925 – 1995 م)، (ميشال فوكو / Michel Foucault 1926- 1984 م)، ، (آلان باديو / Alin Badio 1937م) وغيرهم، مع رفض صارم في التنازل لصالح العدمية وأن النقلة الفكرية المعاصرة لأوروبا اليوم ليست نهاية التاريخ على حد تعبير) فوكو ياما / Fukuyama 1952 م)، وهو ما يعتبره (فيري / (Ferry، حكما مبكرا للغاية مؤكدا على دور الفلسفة في المجتمع وأنه يتعدى من كونها مجرد مادة أكاديمية تدرس داخل أسوار الجامعات والمعاهد بل هي تتفوق على هذا النوع من التصور الذي ضيق عليها حدودها إذ أنها تساهم إلى حد بعيد في تحديد معنى القيم في المجتمع كبديل عقلي ونابع من الذات بعيدا عن التعالي الديني.

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى إثارة الإشكال التالي: ما هي الأسباب التي ساقت الفلسفة المعاصرة اليوم إلى الاهتمام بالجانب الإتيقي أكثر من باقي المباحث الفلسفية الأخرى؟ وهل الإتيقا هي نفسها الأخلاق؟ وما هو الطرح الفلسفي المعاصر الذي قدمه لنا لوك فيري حول فحوى إتيقا العصر؟ وما هي رؤيته الفلسفية في تخطي الأزمات الإتيقية المعاصرة؟ وما هو السبيل الأمثل بالنسبة إلى فيري حتى يتمكن الإنسان المعاصر من بلوغ خلاصه وتحقيق سعادته؟

في هذه الدراسة اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي وذلك بتحليل الأفكار الفلسفية قصد تبيان الرؤية التي سعى لوك فيري من خلالها إلى طرح الفلسفة كبديل عن الدين في التأسيس لمفهوم الأخلاق، كما اعتمدنا المنهج المقارن وذلك بمقارنة القضايا الأخلاقية في أوروبا إبان التفكيك وبعده.

2. من الأخلاق إلى الإتيقا

1.2. الأخلاق ضرورة وإشكالية

ما بات من المتفق عليه في الوقت الراهن أن فقدان القداسة اتجاه كل المتعاليات هو السمة التي تطبع الفكر الغربي المعاصر على وجه الخصوص مما زاد الحاجة إلى أخلاق توائم تطورات الوقت الراهن لتنظيم الحياة الإنسانية، غير أنه في الوقت نفسه من الصعب جدا أن يعمم فيه تصور لطابع أخلاقي صادر عن مجموعة واحدة معينة لجميع البشر.

حتى أن التعريف الاصطلاحي للأخلاق المعاصرة له دلالة مزدوجة، بحيث أنه إذا كانت الأخلاق تعني: "مجموعة القواعد السلوكية المعتبرة صالحة بلا شرط. ((من المبالغة تفسير (الشر) ... ولا ينبغي للميتافيزيقا أن تفسر ما تدينه الأخلاق))" (لالاند، 2001، ص370)، أي إنها نظرية تدرس السلوك الإنساني ومبنية على الإلزام الخيري بحيث أنها محددة بالواجب وتهدف إلى فعل خيِّر.

بينما يأتي اختلاف بين مفهومي الإتيقا والأخلاق من حيث جوهرهما إذ يقصد بالإتيقا على أنها: " المرجعية المعيارية التي تقف وراء الأخلاق وتقوم بوظيفة توجيهها نحو السلوك السديد. فهي بمثابة ((البارومتر)) الذي يقيس درجة حرارة الأخلاق، وتشخيصها إن كانت السلوكيات التي تفرزها في الواقع العملي باتولوجية أم صحية" (بن جيلالي، 2021، ص 13).

وعليه فإن الأخلاق المعاصرة هي في حقيقة الأمر تشمل جانبين إثنين دون الفصل بينهما الجانب الأول هو الأخلاق النظرية العقلانية والجانب الثاني هو الأخلاق التطبيقية الحياتية.

تعتبر الأخلاق العلمانية اليوم على وجه العموم أخلاقا وضعية بالدرجة الأولى، تتأسس على مبادئ المساواة وحقوق الإنسان والتضامن ... إلخ، وهي أخلاق لها أهداف اجتماعية بالدرجة الأولى فمهما كان حجم الاختلاف الذي يدور حول مفهومي الأخلاق والإتيقا، إلا أن لوك فيري لا يجد اختلافا كبيرا بينهما، إذ يرى أن كلاهما يحملان نفس المعنى، أما فلسفته القيمية تهتم أساسا بالقيم الروحية والتي سنأتي على تفصيلها لاحقا.

على امتداد التاريخ البشري كان موضوع الأخلاق يحتل موضع الصدارة ضمن النقاش الفلسفي، غير أن الحاجة للحديث عن الأخلاق اليوم ليس من باب الترف الفكري، بل لأنها باتت حاجة ملحة في المجتمعات المعاصرة، في محاولة منها لمواجهة التأزم الإتيقي لهذا العصر، ولأن الإنسان يتصف بأنه كائن أخلاقي بطبعه سواء كانت أخلاقا جبليَّة أو مكتسبة، إذ أن الإنسان يولد ولديه استعداد سيكولوجي للإلتزام بقواعد ما، فلكي يندمج داخل مجتمعه لابد له أن يلتزم ضمنيًا بقواعد هذا المجتمع ويتأقلم معها.

فالطفل يكتسب انطباعات ذاتية عن العالم معرفيا وأخلاقيا، قبل أن يتبع القواعد المتضمنة في لغة وسلوك مجتمعه، إلى أن يندمج هذا الانطباع مع قواعد/أخلاق مجتمعه بدفع من هذا الاستعداد"، (دوز، 2016، ص 08)، وعليه فإن مهمة الأخلاق تكمن في أنها تأتي كضابط قيمي في علاقة الإنسان مع الآخرين وحتى مع نفسه، حتى أن القانون وحده ليس بمقدوره السيطرة على سلوكيات الأفراد، دونما وجود أعراف أخلاقية دينية كانت أو فلسفية تحركها، إذ أنها الوحيدة القادرة على ترسيخ معنى الخير في وجدان أي مجتمع، ناهيك عن قدرتها في منح الفرد التفريق بين حاجاته وحاجات مجتمعه.

وعليه فإن غياب الدين في الأوساط اللائكية والعلمانية الأوروبية أوجب على الفلاسفة المعاصرين في الغرب، على إيجاد منبع جديد للأخلاق يكون بديلا عن التفسير الديني، ووجدوا أن الفلسفة هي هذا البديل، متخذة بذلك اتجاها عقليا محايثاً بعيداً كل البعد عن التعالي الديني، وبما أن الأخلاق هي المرآة التي تعكس جوهر التقدم الحضاري لأي مجتمع، فإن الاهتمام الفلسفي في أوروبا اليوم بات الأخلاق بالدرجة الأولى، نظرا للصراعات الفكرية والدينية وكذا الانهيار القيمي الذي بات يجتاح العالم اليوم.

كما أن التقنية ساهمت بشكل خاص في نشر وإظهار حجم التأزم الإتيقي إلى العلن، بشكل صريح وواضح من خلال شبكات التواصل، وكذا تطور الأسلحة البيولوجية والنووية التي باتت تزيد من حدة التوتر بين الأمم، ورفع نسب القلق في سير المجتمعات نحو مزيد من التأزم، لذلك وجب تعميق مجال الأخلاق في الأوساط العامة نظرا للعوامل التي كانت سببًا في ظهور الفكر الأخلاقي المعاصر، وهي في غالب الأمر لها علاقة وطيدة بالحياة اليومية للمجتمع الغربي ونذكر منها ما يلي:

أ. **إفلاس المعنى وغياب الإيديولوجيات:** إن أول ما نصادفه حينما نخوض في فلسفة الأخلاق أو في حديثنا عن القيم على وجه العموم في الفلسفة الغربية المعاصرة بالتحديد، هو التركيبة المعاصرة للفكر الغربي اليوم، إذ أنه فاقد لحد بعيد لوجود حقائق قارية وهذا نفسه ينطبق حتى على مبحث الأخلاق بالنسبة إليه، فالفراغ واللاشئ اللذان سادا التفكير الأخلاقي المعاصر، كان سببه تلاشي الأسس الأنطولوجية والدينية للأخلاق، بينما كانا هما مصدرها وأساسها الأول مما زاد من حدة التأزم الإتيقي الراهن بحيث أن: "المسألة الروحية هي مسألة المعنى، كما يقال اليوم، أي أنها أيضا مسألة اللامعنى. ويبدو لي أن هذه المسألة هي التي تنزع، منذ بضع سنوات. إلى احتلال الصدارة في أذهان وقلوب الشبان" (سبونفيل، 2005، ص17).

وبذلك أضحى التفكير في نظام إتيقي إنساني يتناسب والأحداث الكونية الراهنة والمتسارعة من أهم المباحث الفلسفية المعاصرة في الغرب: "فنظريات القيمة لا تظهر إلا في اللحظات التي يقل فيها الشعور بالقيمة فنحن نحيا في عالم يمكن مقارنته بالكهف الذي يتحدث عنه "أفلاطون"Platon (427 ق. م – 347 ق. م) في كتابه الجمهورية. وهو كهف لا يرى المسجون فيه، إلا صورا مسطحة منعكسة على الحائط إن العالم الحديث ليس شيئا سوى هذا العالم السطحي الذي لا نرى فيه عمق الأشياء." (ميمون، 1980، ص67)، فزمن العدمية الذي قال به رواد التفكيك هو متجسد اليوم حينما تعرت فيه الثوابت واستحالت إلى فراغ روحي ومعنوي جلي، وبالتالي إستشكل الأساس الذي نقوض على إثره أخلاقنا، عمّا إذا أنه سيكون من خلال الدين بأطروحة الثواب والعقاب، أو بكبح الشهوات والتعالي على مطالب الجسد عند أفلاطون أو بربط سعادة الإنسان بالعقل والخير الأسمى عند (أرسطو / Aristote 384 ق. م – 322 ق. م).

وانطلاقا من ذلك أصبح الدين في الفكر الغربي منذ زمن الحداثة مجرد أفيون للشعوب المضطهدة من طرف الحكومة، أما الأخلاق الدينية ليست أكثر من استكانة ورضى بعدم المساواة والظلم وكبح الرغبات وتفضيل مصلحة الآخر على الأنا هو عدم احترام لكرامة وكينونة الإنسان وإهانة لها، إذ أن القيم الحقيقية في تصور الفكر الغربي المعاصر هي قيم تعتني بالإنسان الكلي ولا تكبل حريته الفكرية أو العقدية وحتى الجسدية.

فغياب القداسة هو سبب وجيه لغياب المعنى الكلاسيكي للمعنى، وغياب المعنى هو غياب للاتحاد داخل المنظومة الواحدة إذ لم يعد للخطابات الدينية أو الإيديولوجية الفاقدة للشرعية، في الأوساط العلمانية أي قدرة على التأثير في الجماهير لصالح أي سلطة تعتمدها أو أن تعتمد على أي نوع من الخطابات، لشحن الناس لصالحها وأضحت الممارسة الدينية على وجه الخصوص لا تعد كونها ممارسة فردية لا أكثر، وهذه هي مشكلة المجتمعات المابعد حداثية فالمجتمعات البشرية معروف عنها بطبيعتها أنها تأبى الفراغ، لكن في مقابل ذلك فقد قبلت الأوساط العلمانية، بما هو نسبي ومتعدد وفي أحيان كثيرة تبدو مبعثرة وغير مترابطة.

إذ أن موجة الانفتاح التي اجتاحتها باتت توحي بعدم التماسك على مستوى الهدف والغاية بسبب غياب المعنى: "بسبب كل

هذا لا يمكن قيام أي معيارية، ولا يمكن تأسيس نظم أخلاقية عامة، وإنما يمكن تأسيس اتفاقية محدودة الشرعية لا تتحد في ضوء منظومة أخلاقية كلية وإنما في ضوء الوظيفة والنتيجة" (عبد الوهاب المسيري، 2003، ص94).

ب. التقنية: إن ما يجعل التقنية ذات أثر بالغ في التطورات الإتيقية الراهنة، وبالطرف الغير حيادي في هذه المسألة على حد تعبير (يورغن هابرماس / jürgen Habermas 1929 م) هو تأثيرها المباشر على جل القيم والسلوكات الإنسانية من خلال وسائل الاتصال، فهو ينفي وجود براءة أو صفاء علمي فحيثما كان هناك تقنية، كانت هناك حسابات سياسية تحايثها بالمعنى النيتشوي ناهيك عن الهوس الأمني حيال الأخطار البيولوجية التي خلقتها التقنية الحديثة، سواء من حيث التسابق العالمي الرهيب نحو التسلح، أو من حيث التأثير على المناخ ونظامنا البيئي، وهو ما أفرد له لوك فيري مؤلفا كاملا عنه بعنوان "النظام الإيكولوجي الجديد".

كما لم يكن الوحيد في ذلك إذ أن حجم السلطة التي بات يفرضها التطور العلمي، والسيطرة الغير العفوية له على حياتنا أين أصبح مسألة حساسة ومصيرية تأخذ مساحتها داخل الدوائر الفلسفية، ويدخل ضمن أغلب نقاشاتها حدة إذ أن: "سلطة العلم ستنجح في السيطرة على الإنسان ويعتبر الكثير من الفلاسفة والسوسيولوجيون وعلماء الدين والسياسيين النتائج الاجتماعية للعلم خطرا على المجتمع فهناك اعتقاد بإمكانية مراقبة السلوك الإنساني-ميكانيكيا وتوجيهه طبقا لمصالح معينة" (هابرماس، 2013، ص ص 24، 25)، وهذا يعتبر قهرا اجتماعيا للاستقلال الفردي للأشخاص وانتهاك لخصوصيتهم ما دام العلم يهتم فقط لما يمكن الوصول إليه بغض النظر عما قد يخلفه من أضرار على سلامة البشر.

وبما أن عصر الحداثة عرف عنه أنه عصر النقد والتفكيك ومن دون أدنى طموح إتيقي أو سياسي، وتشظي واضح لبنية المعنى، الذي اتضحت معه معالم عالم ما بعد حداثي استهلاكي جديد، حيث أن أغلبية الناس ضمن النظام الاقتصادي الليبرالي يمتلكون أكثر مما هم في حاجة إليه، غير أنهم لا يجدون سعادة في فعل ذلك وأصبح الفرد لا يحس بذاته إلا من خلال ما يملك، كما سبق (لإيريك فروم / Erich Fromm 1900 – 1980 م) أن تحدث عن ذلك إذ ساق لنا هذا المشهد من خلال مؤلفه: "الإنسان المستلب وآفاق تحرره"، إذ يقول في هذا الشأن: "قد يحصل أن تشبع كل الرغبات الفيزيقية والبيولوجية، وعلى الرغم من ذلك لا يشبع الإنسان، بمعنى أنه لا يعيش في سلام مع نفسه، بل يكون لظروف جد معينة جد مريض، حتى وإن كان يمتلك ظاهريا كل ما هو في حاجة إليه" (فروم، 2003، ص 74).

إن الذوات المستهلكة اليوم لا تشعر بقيمة وجودها إلا من خلال امتلاكها، ومسايرة سرعة وكثافة البضائع المصنوعة وعدم مواكبة الحصول عليها قد يؤدي بهم إلى الشعور بالدونية والضعف الداخلي وانعدام القدرة، كما أنه وصف إنسان العصر بالمستهلك الأبدي الذي ينتظر على الدوام إلا أن ظنه يخيب على الدوام، حيث أنه أدان هذا السلوك، واعتبره من أكبر مساوئ التقنية التي سلبت إرادة البشرية من بين يديه، أين أظهر لنا من خلاله كيف أن المجتمعات الإنسانية ما بعد حداثية أضحت خاضعة لإلزاميات السوق، وأن وجوديتها غدت مستلبة ضمن الوثبة الاستهلاكية الشرهة غير الواعية، وصارت فيه بطاقة القرض هي براديغم الحياة الراهنة.

ج. الفردية: يحتل الفرد في الفلسفة الغربية مكانة مهمة باعتباره كائنا أنطولوجيا متميزا عن باقي الموجودات، إذ أن المذاهب الفلسفية المعاصرة على اختلافها تنكر على النَّزعَاتْ المادية اعتبارها لهذا الفرد الإنساني مجرد شيء من الأشياء، وتجدر الإشارة إلى أن الفردية هنا يقصد بها أن الفرد منعزل عن الدولة وليس عن الآخرين، فواجب الدولة هو حفظ المبادئ العامة للقانون، وليس من مهامها أن تعطي للأفراد معنى لحياتهم، لأن الأمر أصعب من أن تمليه علينا إيديولوجية دينية أو سياسية، لأن لكل فرد في الدولة له طريقته الخاصة في إضفاء معنى على حياته، وهذا الاهتمام الفلسفي بالإنسان وبالنزعة الإنسانية برز منذ عصر الحداثة، أين أخذ الإنسان قيمة مركزية ومرجعية أساسية في الكون، غير أن هيمنة منطق النفعية غيَّب إلى حد بعيد المبادئ الأخلاقية داخل الحياة المدنية للبشر، وهذا ما شكل صراعا إتيقيا حقيقيا في الأوساط الفكرية الغربية، حيث وقفت حائرة بين مقتضيات المطلب الأخلاقي وبين سيطرة المصالح والرغبات الذاتية.

كما أن الراهنية التي سيطرت على نمط حياة الفرد ما بعد حداثي كان لها تأثيرها البالغ على الحياة الأخلاقية الحاضرة، من حيث أنها أتاحت للمواطن رغبة متفحة على كل ما هو متاح ومطلقة وغير مشبعة على الدوام، وهو الحال الذي ألغى كل نوع من العقود والمسؤوليات والالتزامات: " ففي سطوة الآنية هذه أصبح الانتباه هو أندر المصادر، فكل شيء محسوب حتى يكون له تأثير بالغ، كثافة قصوى، لأن الخيال قد سئم الآن، بما أنه باستمرار مصدوم، ولإثارته، يجب أن يكون هناك على الدوام صدمات أكثر عنفا وتحطيما من السابقة" (شاردل، 2018، ص 422)، فكثرة الصدمات حقيقة تجعل الفرد غير مكترث بما يجري حوله ناهيك عن التعدد الفكري والعقدي الذي يطبع إنسانيتنا، فالبحث عن انسجام إنساني وتوافق عالمي شامل لا يعني بالضرورة التماثل البشري بل السماح لكل طرف بالاحتفاظ بهويته الخاصة.

2.2 **التصور الإتيقي الراهن عند لوك فيري:** في حقيقة الأمر أن الأخلاق في الوقت الراهن لم تغب لتعود، بقدر ما حدث لها تحول إذ أنه بدلا من الأخلاق القبلية المحددة سلفا، صارت هناك أخلاق الحالة أو ما تعرف بأخلاق الراهن، بدلا من أن تكون القوانين الأخلاقية معطى قبلي سابق على التجارب

العينية الواقعية، فبعد أن كان النص سابقا على الواقع فقد استحال الواقع سابقا عن النص.

بالنسبة إلى لوك فيري إن الأخلاق كمفهوم أو كسلوك هي غير الحقوق تماما، فالممارسة الحقوقية شيء والحياة الأخلاقية شيء آخر،كما أنه لا ينبغي الخلط بين العرف والعادة والأخلاق أيضا فعندما يخالف شخص ما عادات مجتمعه وأعرافه، فلا يعني بالضرورة أنه قد خالف الأخلاق، والحاجة إلى الأخلاق تكمن في أن المجتمع الذي يعيش حياة أخلاقية يفرق كثيرا عن مجتمع يحيا حياة غير أخلاقية، كما يفرق لوك فيري بين السلوك الأخلاقي كفعل وبين القيم الروحية التي تعد أساس فلسفته ولبَّ اهتماماته، وهي قيم نابعة عن الحب والعاطفة الإنسانية الصادقة، وهذا الاهتمام الأخلاقي في نظره حاضر اليوم في المنظمات الحقوقية المناهضة للعنصرية والتنوع البيولوجي والاهتمام بالبيئة وحماية الأقليات المضطهدة...إلخ.

إن فحوى التساؤل الإتيقي الذي يطرحه فيري يسعى من خلاله في المقابل للإجابة عليه، هو عما إذا كان ما نمر به هو انحطاط أخلاقي، أم هو في حقيقة الأمر انهيار للإنسانية في وهم الفردانية والاستهلاك اللامتناهي؟ لكن في حقيقة الأمر على حسب ما يرى فيري أن الانهيار الفعلي كان على المستوى الفكري والعقدي، حيث فقد الإيمان بالمثل العليا والتضحية من أجلها وذلك إثر اتساع دائرة التحرر الفكري، التي شهدتها الدول الغربية وجل أوروبا وبالأخص فرنسا، مرتئيا: "أن التعالي الوحيد الذي يبقى هو تعالي الذات للذات، تعالي أنا غير أصيل بعد الأنا أصيل. وبكلمة تعال محصور كله في دائرة المحايثة للأنا الفردي" (فيري، 2002، ص97)، وهو بهذا يصور بدقة الذهنية العلمانية المكونة للتفكير الفلسفي الفرنسي المعاصر والمتشبع بها، إذ ترى أن الخير لا يتحقق للجماعة عن طريق التضحية بالذات وإنما بالمنطق دون نكران الذات من أجل الآخر، وما يجدر الإشارة إليه أن لوكي فيري دائما ما كان يربط بين العقلانية والوجدان وعقل ممتزج بالشعور حتى يكون بالإمكان بناء عقلانية منفتحة.

إن الشك الذي زرعه التفكيك فيما كان يُعتبر قبل العصر الحديث من الثوابت، كان له أثر بارز على نوعية التفكير في الوقت الراهن، وحتى الأخلاق نفسها لم تسلم من هذه الرجة الفكرية المعاصرة بحيث: "أعادت الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة، اكتشاف هذا ((هذا المثال الضائع)) الذي هو الطبيعة، وحتى الطبيعة الإنسانية في مشهد الأفكار هذا، تعود الإنسانية التي أفرغتها الوجودية الملحدة" (روس، 2011، ص ص 396-397)، إذ تم بذلك إعادة إحياء الفردية ومفهوم الإنسانية من جديد، إلى جانب سقوط العقل المعاصر في دوامة من الشك والريب تجاه موجة التفكيك التي عصفت به منذ زمن (نيتشه/ Nitzshe).

بالإضافة إلى شيوع استخدام التقنية وتطور العلوم وهو ما كان سببا في تغير المفاهيم، مما حثَّ على إعادة تقييم المبادئ التي تقوم عليها فكرة الأخلاق من الأساس في أوروبا: " ما حصل هو ليس القضاء على الأخلاق الدينية اللاهوتية، بل اكتشاف أخلاق علمانية مصدرها العلم، وهي أخلاق لا تهتم أساسا بمصير الإنسان بعد الموت – كما هو الشأن في الدين -، على اعتبار أنه مصير لا يمكن التحقق منه علميا" (هابرماس وآخرون، 2013، ص 23).

بذلك أضحى أساس الأخلاق العلمانية الغربية مبني على أخلاق وضعية تكمن في العدالة وحقوق الإنسان، غير أن العلم والتقنية كانا بالنسبة للإنسان المعاصر سلاح ذو حدين، فكما أعادا النظر في أساس الأخلاق أصبحا أيضا سببا في ضياع مصير الإنسانية من بين يديها، وفقد إرادتها أمام التطور المذهل للتقنية وبات في عهدتها، بالإضافة إلى أثارها الخطيرة على الإنسان والبيئة التي باتت تشكل تهديدا حقيقيا على البشرية ومستقبلها، خاصة بعد التسابق المهول بين الأمم اليوم للتسلح، ليس النووي فقط بل وحتى البيولوجي، والجيوش البشرية المعدلة جينيا على نحو غير مشهود من قبل، من طرف القوى العظمى في العالم اليوم، وهو ما رفع مستويات القلق والتأزم لدى شعوب العالم أجمع، حيال قيام حروب قد تنهي على وجودها وعلى مختلف أشكال الحياة، حتى أن التقنية اليوم باتت تفرض رقابتها على الفرد وهو ما أفقده كثيرا من الخصوصية.

نتيجة لهذه التطورات الراهنة والتي باتت كلها مترابطة فيما بينها فإن الأخلاق باتت علما عمليا وليس نظريا فقط على حسب رأي لوك فيري ، وفي حديثه عن مسألة القيم الأخلاقية يذكر أن الفرد المعاصر في تعامله مع ذاته ومع الآخر، بحث دائم عن العيش المشترك رغم الاختلاف، لأن العيش الحكيم بالنسبة له لا يعني أبدا أن يكون المرء محبوبا لدى الجميع، ولا أن يكون نفسه مُحبا وودُودًا على الدوام مع من حوله، وإنما يقتضي ذلك أن يعرف كيف له أن يعيش حرا بسعادة وبإرادة بالإضافة إلى قدرته على التغلب على مخاوفه.

لذا فإن ما يؤكد عليه فيري في حقيقة الأمر هو القيم الروحية التي تعد أساس العيش الرغيد بالنسبة للفرد حيث أن: "التحلي بقيم أخلاقية عالية وتعميمها على جميع بني البشر لن يمنعهم من الشعور بالضيق والقلق وأنهم في نهاية المطاف مخلوقات فانية [<<هذه القيم بعينها هي التي أنعتها ((بالروحية)) أو ((الوجودية)) لأنها تمس مباشرة مسألة الحياة الطيبة بالنسبة إلى البشر، الفانين بينما القيم الأخلاقية ليست في العمق سوى الإطار الكفيل بتحقيق السلام بين الكائنات البشرية. ولكنها ليست شرطا كافيا لحياة موفقة]"، (فيري وآخرون، 2015، ص 13)، وما يقصده فيري هنا واضح جدا ذلك أن البشر يعتبرون كائنات ذات مستوى عال وواع من الناحية السلوكية والأخلاقية، غير

أن أخلاقهم هذه لا تساهم بأي شكل من الأشكال في جعلهم يحيون حياة سعيدة، قادرة على إرضائهم أو منعهم من الحزن والاكتئاب والتأزم النفسي، حتى علم النفس والدين يقفان عاجزين أمام هذه المشاعر الإنسانية شديدة التعقيد، إذ لم يعد في وسع الإيمان بالمقدس قادرا على إقناع العقل الغربي المعاصر أو ملئ فراغه في وقت بات فيه المقدس غير ذات معنى.

كما يفصل فيري كليا بين القيم الأخلاقية كسلوك وبين القيم الروحية، إذ أن تحقق إحداهما لا يعني تحقق الأخرى بالضرورة، كما يجدر بنا الإشارة إلى نقطة أخرى تتمثل في قيام كل من لوك فيري وهابرماس بالحديث عنها وهي أن التقنية فتحت الباب للتواصل مع الآخر، وهو إقرار بعودة فكرة الشخص الذي لا يمكن لي أن أتعامل على أنه شيء، وإنما باعتباره ذاتا مدركة عاقلة ومنفعلة ضمن حلقة التواصل هاته، وبالتالي ضرورة حضور الأخلاق بصفة ملحة في سبيل إنجاح عملية التواصل من أجل الوصول إلى تحقيق تواصل فعال بين الأنا والآخر.

غير أن هذه الأخلاق حتى بحضورها تبقى وليدة عصرها ملازمة للعقل المرتاب، وهذا الريب جعل هناك تعدد للرؤى الأخلاقية المعاصرة، إذ نذكر من هذه الاتجاهات التي شهدت إقبالا واسعا بالأخص في فرنسا أخلاق المحايثة، وهو واحد من الاتجاهات الفلسفية المعاصرة ، أين نجد لوك فيري واحدا ممن تبنوا هذا النهج الفلسفي بحيث أنه يعتبر توجها قيميا عقلانيا يرفض الرجوع للمتعاليات في تفسير الأخلاق، والحياة الروحية والنفسية للبشر الفانين على حد تعبيره، التي تحرص على الارتباط بالواقع الذي يرسخ قيمنا ومعاييرنا لكن دون التنازل لصالح العدمية وهي في الأساس: "محاولة إعادة تأسيس جذري وهو مقوم زماننا. وإنما البحث عن أخلاق نظرية صالحة للإنسانية بأسرها بما في ذلك النوع البشري القادم الموكل إلى حمايتنا، إنما ينير النظام الأخلاقي النظري المعاصر" (روس، 2001، ص 135).

وعليه فإن أوروبا المعاصرة قد أعادت من خلال مفكريها تركيب الأفق الإيديولوجي، إلى جانب زيادة عمق مسؤوليتها في قلب التحولات الراهنة، بالإضافة إلى تجاوز الأفراد من خلال التصور العلماني لذواتهم في تقبل الآخر، ومراعاة إنسانيتهم التي تجمعهم على اختلاف هوياتهم على حسب ما يرونه من خلال حكمة الحب والحق في الحرية والمساواة لجميع الأفراد دون استثناء.

3. من التعالي إلى المحايثة واتيقا العيش السعيد

1.3 الفلسفة بديل علماني للدين

لقد وصفت الذهنية الأوروبية والفرنسية على وجه الخصوص بأنها ساحة حية لاختبار العلمانية كطريقة حياة، حيث أن العيش في عصر علماني يفهم فيه الإيمان بالله كخيار من الخيارات: "خصوصا عندما تم إبعاد الكنيسة عن ممارسة السلطة السياسية والإدارية، وبخاصة في مجال التعليم، وبالتالي إعادة كل ما يتعلق بعالم السياسة والاجتماع إلى العالم الدنيوي "، (حيدر، 2019، ص 40)، إذ أن العيش في عالم محايث مجرد من أي اعتقادات إلهية أو روحية متعالية عن الواقع المعيش، فبعد (هيجل /1831 – Hegel 1770 م) لم يعد مفهوم المطلق قادرا على إقناع الجمهور.

كما كان (كانط / 1804 –Kant 1724 م) أول من شدد على الفصل الصارم بين الدين والأخلاق كمنظومة تربوية، أين أصبح التبرم لما كان يقينيًا في السابق، يدعو إلى الشعور الدائم بالشك وعدم الثبات والقلق حيال هذه العدمية التي زعزعت كل الثوابت، غير أن هذا الشك ليس بالشيء السيئ دائما فهو في المقابل يدعونا إلى إعادة التفكير في هذه القيم الماضية، والسعي لإيجاد قيم راهنة ذات جدارة، وما يعزز هذا الشك الملازم للفكر الغربي المعاصر هو الأحداث المتوالية التي وسّعتها دوائر الإعلام والاتصال، أين صار الشك نظاما نمطيا راهنا لتفادي السقوط في الأنماط والدوغمائيات القديمة، إذ أنه مهما بلغت سلطة القانون لا يمكن لها بحال من الأحوال السيطرة على الإنسان دونما وجود أعراف أو أخلاق دينية أو فلسفية تحركه كونها الوحيدة القادرة على أن ترسخ في وجدان أي مجتمع معنى الخير.

ناهيك عن دورها في منح الفرد القدرة على التفريق بين حاجاته وحاجات مجتمعه، وعليه فإن غياب الدين في أوساط المجتمع الغربي والفرنسي على وجه التحديد، واعتباره خيارا شخصيا لا ممارسة جماعية آل بجعل الفلسفة هي البديل الذي وجدت فيه المجتمعات العلمانية ضالتها بعيدا عن ما تقدمه المقدسات والأديان، وبذلك باتت الأخلاق عقلية وعملية بحتة بعيدا عن الطرح الديني.

وعلى ما سبق ذكره فإن الرؤية الغربية المعاصرة تكاد تجتمع على أن أصل الأخلاق قد باتت توكل لدى غالبية المنشغلين بها إلى الفلسفة دون سواها، إذ كان لوك فيري واحدا من أولئك الذين يحتلون صدارة هذا الرأي على غرار باقي الفلاسفة الفرنسيين ممن عاصروه وقاربوه هذا التوجه، لأن الفلسفة ليست كالدين فهي لا تقصي الآخر سواءً كان متدينا أم لا، وسواء كان فيلسوفا أو غير مهتما بالفلسفة، فالأخلاق المستمدة من العقل هي بعكس الشرائع تماما، فإذا هي حددت الدين سيصبح واحدا من مصادرها لا كلها.

لذلك فإن العالم اليوم هو بحاجة إلى فلسفة أخلاقية توجهه وتكون مبنية على قيم مفهومة من أغلبية أعضائه ومقبولة لهم ومحترمة منهم، وهذا النمط من التفكير لاقى قبولا كبيرا في وسط مجتمع لائكي كالمجتمع الفرنسي، الذي لا يعترف بأي معتقد أو عقيدة يمكن لها أن تحكمه إذ لا يعد الدين أكثر من مجرد نشاط فردي، لذلك كانت العلمانية بالنسبة للوك فيري هي نزول من السماء إلى الأرض كما سبق أن فعل الفلاسفة الإغريق سابقا، في صياغتهم للميثولوجيا

حينما انتقلوا من الميتوس إلى اللوغس عن طريق العقل وحده، ولذلك ينوه فيري مسبقا إلى أن القيم الروحية التي هي صلب اهتمامه، إذا ما استمدت من الفلسفة قد تتعارض مع الدين في كثير من الأحيان، وفي نظره أنه من الحكمة تفعيل الفلسفة في الواقع المعيش، لأنها سبيل ذاتي لبني البشر من أجل تحقيق العيش السعيد بدون تعقيدات روحية ترهق راحتهم، كما أنها وحدها القادرة على إعطائه معنى لحياته لكي يتناغم مع الكون بعيدا عن قيود الدين، لذلك فهو يعتبر أن الإنسان الحكيم هو إنسان مؤله كونه يعيش بطريقة فلسفية، لذلك فحياته شبه أبدية حتى لو اقترنت بالموت إذ: "إن الحداثة التي أنتجت اللائكية ليست إقصاء للتعالي ولكن إعادة تهيئة للتعالي لشروط توافق مع مبدأ رفض حجة السلطة" (عبد النور نابت، 2012، 107).

كما نجده يسوق لنا أمثلة عديدة عن البدايات الأولى للفلسفة الإغريقية ممن مارسو العيش الحكيم عن طريق الفلسفة، من أمثال (سقراط / Socrat 470 ق.م – 399 ق.م) الذي كان يدعو تلامذته وغيرهم إلى إتباعه، واتخاذ الفلسفة طريقة للعيش الهني عن طريق توليد الأفكار، أي انطلاقا من ذات الفرد بواسطة العقل وحده وليس عن طريق الاعتقاد بما هو متعال وخارج عنه، فعلى الرغم من أنه لم يترك أي كتب توثق لنا فلسفته وإنما وصلتنا فقط من خلال مؤلفات تلميذه، وهذا النهج الفلسفي القديم هو ما يتخذه فيري طريقة للعيش الحكيم ولكن بطريقة توائم العصر الراهن.

ومن هنا فقد اتخذ الفلاسفة الفرنسيون المعاصرون طريقة إحياء المناظرات الفلسفية المنفتحة على الفضاء العمومي القائمة على الأدلة والحجج العقلية، موجهة من المتخصصين إلى عامة الجمهور بلغة بسيطة مفهومة للعامة، وحتى لأولئك ممن ليس لهم اهتمام بالفلسفة نتيجة للغتها النخبوية المعقدة المفرطة في التجريد، وهذا هو دور الفلسفة اليوم على حسب ما يراه، إذ أنها لا تسعى إلى طرح الأسئلة النخبوية، وإنما سبيلا للخلاص الروحي بالنسبة للمجتمعات العلمانية إذ: " لا يغامر أي مفكر اليوم في اختلاق "نسق" فلسفي. المهمة الحالية للمفكر مضاعفة: نظرية، وتتمثل في فهم عصرنا، وأخلاقية الآن وقد تصالحنا مع الديموقراطية يبقى أن نجعل منها نقدا داخليا وأن نعيد التفكير في أسسها" (دورتيي، 2009، ص 84).

إذ أن الفلسفة باتت تشكل اليوم العلم الذي يهتم بالإنسان وقضاياه المصيرية كمعضلة الموت والفناء، واعتبارها حكمة فكرية وأخلاقية وجمالية راهنية يتحقق بها الخلاص الإنساني في لحظته الآنية، وليس الأخروية مثلما يقول بها الدين، وعليه فإن مهمة الفلسفة اليوم كما يشير إلى ذلك لوك فيري تتمثل في دورين رئيسيين هما: الأول هو إعادة فهم رؤى العالم التي غيرت مسارنا الديموقراطي، والدور الثاني فهو أخلاقي قيمي والذي يتمثل في ممارسة النقد الداخلي، دون اللجوء إلى أي أوهام ميتافيزيقية سابقة بل من خلال العقل أو المصالح أو الإرادة، غير أن مصطلح المصالح يعزز طموح الرأسمالية بأن يتخلص المستهلك من كل ما يمثل مرجعية ثابتة من شأنها أن تعرقل طغيان حركة السوق: "الفلسفة تأخذ على عاتقها تحديد الشروط والوسائل الكفيلة بإيجاد هذا المعنى بواسطة الموارد البشرية وحدها، وبالتالي بواسطة مواردنا نحن تماما، تلك المتمثلة في العقل والفكر وحدة الذهن دون المرور بالإله" (لوك فيري وآخرون، 2015، ص 20).

كما ركز لوك فيري من خلال محاضراته ولقاءاته الصحفية جلّ تركيزه على إعادة بناء التصورات والمفاهيم المتعلقة بحقيقة الفلسفة وغاياتها الإنسانية، فهو لا يعتبرها ترفا فكريا خاصا بالنخبة من الفلاسفة والمشتغلين بها بل هي خاصة بالناس جميعا مستدلا بذلك على ما قدمه (روني ديكارت /René Descartes 1596- 1650 م (من خلال أعماله لفرنسا والعالم، حينما قاد الذهنية الغربية نحو أفق التحرر من القيود التي مارستها الكنيسة وحتى الأنظمة الملكية والأرستقراطية قبل قيام الثورة الفرنسية، بالإضافة إلى الإلمام بالفلسفة ومباحثها عن طريق تبني أفكارها وتراثها العقلي العريق باعتبارها نمطا للعيش الحر، فهي كفيلة بأن تنير ذواتنا لإدراك أنفسنا والتعايش السلمي مع الآخرين، وفهم ما حولنا بشكل أفضل لا مجرد ثقافة فكرية فحسب إذ أن: " في الفلسفة ما يساعد على قهر المخاوف التي تشل الحياة، وإنه لمن الخطأ الاعتقاد أن علم النفس يمكن أن يحل محلها في أيامنا هذه" (فيري، 2016، ص17)، كون أن أكثر ما يؤرق إنسان العصر بعد غياب التفسيرات الدينية والإيديولوجية، هو فكرتي الحياة والموت والخوف الدائم من المرض أو التعرض للإفلاس أو الفشل، وغيرها من الأفكار التي أقلقت راحتنا في الوقت الراهن والتي يرى فيري حلها في الطرح الفلسفي وحده.

إذ أن التأزم المتصاعد في المجتمعات العلمانية على المستوى الإتيقي، يبقى بدوره معضلة يقع حلها على عاتق الفلسفة وحدها وموضوعا أساسيا، له حضوره الواضح ضمن أطاريحها المعاصرة على الدوام وبشكل ملح أكثر دون القدرة على تعويضها، كونها مازالت إلى اليوم رغم قدم نشأتها ننهل منها كثيرا من الحكمة وفن العيش، فمن أجل الولوج إلى السكينة وهزيمة المخاوف ينبغي أن يكون الفرد حرا بعقله وبطريقة تفكيره غير مقيد بدين أو ايديولوجيا ما.

إذ أن الفلسفة هي الوحيدة التي تكفل لنا هذا النوع من التفكير الحر، وما نعيشه بأي حال ليس إجهازا على المقدس أو كسوفا للقيم وإنما تجسيد جديد لها في وجه الإنسانية، حتى أن أوروبا العلمانية اليوم وأكثر من أي وقت مضى، باتت تحيا حياة إنسية ما بعد كولونيالية وإنسية تعال وغيرية وحبّ وهو ما يظهر بشكل جلي بحيث: "أن هناك موضوعان أثيران لدى لوك فيري، حاول إثراءهما عبر تأملات عميقة

ومحاورات غنية (...) الأول منهما يكمن في تحديد الفلسفة بوصفها بحثا عن الحياة السعيدة والحكمة، بعيدا عن الإيمان اللاهوتي، أما الثاني فهو ما يسميه بثورة الحب" (عبد الوهاب شعلان، 2016، ص 1)، وهو ما يشير إلى أن ثمة تقليدا فرنسيا بدأ يترسخ في أوساطها الفكرية والفلسفية، يختلف كليا عما كان سائدا من قبل جاعلا من الفلسفة فنا للعيش، ونوعا من العلاج لأكثر الأمراض تفشيا في العالم المعاصر بمختلف أزماته، وليست مجرد تكرارا واجترارا لما قيل ويقال.

2.3 **إتيقا السعادة:** يعد الحديث عن مسألة السعادة من المباحث التقليدية لفلسفة الأخلاق، ومن المعروف عنها أيضا أنها تتصف بعدم الثبات وقبل التوسع في فكرة السعادة عند لوك فيري لابد من توضيح مفهوم الخلاص عنده لنفهم ما يقصده من السعادة.

فكما أشرنا سابقا أن الأزمات الحقيقية للمجتمعات العلمانية قد باتت في إيجاد المعنى من العيش، فبفقدان المقدس في الوقت الراهن لقدسيته وكون الإنسان هو الكائن الوحيد المدرك لفكرة فنائه وفناء من يحب يوما ما، فكان خلاصه الوحيد عن طريق العقل المتمثل في العيش بحكمة من التفكير الفلسفي الصحيح، ويعطي (فيري توضيحا لمعنى الخلاص بقوله: "افتح أي معجم وستجد أن <<الخلاص>> يعني،.. بداية وفي الدرجة الأولى، إمكانية <<الإنقاذ ودرء خطر أو مصيبة كبيرين>>. ولكن من أي كارثة أو خطر داهمين تدعي الأديان إنقاذنا؟" (فيري، 2016، ص 24)، إذ أنه ينكر على المعتقدات الدينية والإيمان بالمسيحية التي دائما ما تنتقد الفلسفة في قدرتها على تحقيق الخلاص للإنسانية، حتى فيما يخص التنمية الذاتية المستوردة من الو.م.أ، وحتى أن هناك منها ما أخذ من الأفكار البوذية بينما أن الحقيقة الفعلية لا وجود لتعالي أو مقدس خارج الذات الإنسانية، فالحياة المعاصرة تكثف ضغوطاتنا وآلامنا الماضية وتزيد من حدة مخاوفنا على آمالنا المستقبلية، مما يزيد حالة القلق والتوتر لدى الإنسان المعاصر مما يعظم عنده التأزم المرضي والكدر المستمر، ومنه كانت فكرة فن العيش عند فيري نظرة فلسفية فيها مصالحة بين الفلسفة التي هي بحث مستمر عن معاني السعادة، وثورة الحب التي من شأنها أن تعيد بناء التصورات في العلاقات بين الأفراد مع الإشارة إلى تفوق الفلسفة الغربية في تجذير مفهوم الكائن الحر.

إن السعادة كطرح فلسفي نالت حظا وافرًا من الاهتمام والبحث، إذ أننا نجد لها حضورا قويا وممتدا من الفلاسفة الشرقيين وحتى عهد الإغريق، كما كان لها حضور في الطرح الديني عند البوذيين وحتى لدى المسيحية والإسلام، غير أن الحديث فيها قد تشبع بالتفسيرات بين ما هو فلسفي وبين ما هو ديني، وحتى الطرح الفلسفي لها كان هو الآخر متباينا بتباين الفترات الزمنية التي طرح فيها سؤال السعادة، كما هو الحال اليوم فتصورها الراهن يختلف كليا عمّا عرفت به سابقا، أي قبل وجود المجتمعات الاستهلاكية ضمن حضوة الرأسمالية كما هي اليوم، إذ كان لها أثر بالغ على تفسير مفهوم السعادة كون هذه الأخير شديدة التعقيد والتشابك إذ: "لا يعد من الموضوعات السهلة اليسيرة، فكم نجد تصورات مختلفة ومتضاربة حول السعادة، بالإضافة إلى أن البحث في السعادة قد ارتبط كما قلنا بدراسة العديد من المجالات الأخرى وعلى رأسها البحث في موضوع علم النفس" (مراد، 2001، ص 07).

كما أن السعادة لا تعد موضوعا للدراسة الأكاديمية فحسب، بل هي مشروع يسعى إليه جل الناس وهو ما فرض عليها صفة النسبية في تعريف ماهيتها، حتى وإن سعى الإعلام اليوم إلى تصويرها في شكل مادة جاهزة للاستهلاك من خلال الإعلانات التجارية، بيد أنها في حقيقة الأمر يصعب كثيرا على الباحثين والمنشغلين بها تحديد معنًا أو مفهوماً عاماً لها أو حصرها من خلاله: "فكأن مفهوم السعادة لا يرد اليوم إلى وقائع يود فهمها، كأن الاسم غدا من غير مسمى. غياب المفهوم ربما علامة على غياب الواقعة التي يرد إليها. ما يؤكد ذلك أن حتى أولئك الذين يعرضون إليه سرعان ما يختزلونه ليخوضوا في الحديث عن مفاهيم تقرب منه من غير أن تشمله كاللذة والمتعة واللهو وما شابه." (بن عبد العالي، 2012، ص 36).

إذ بات مفهوم السعادة غير مدرك وذلك راجع لأمرين رئيسيين: الأول وهو ما ذكرناه سابقا وهو نسبية السعادة كشعور لكونها غير دائمة ومتقطعة طوال حياة الفرد، أما الثاني فهو سوء استخدام المصطلح ناهيك، عن تداخل المقاربات العلمية للمصطلح مع القراءات الفلسفية له، خاصة ما تعلق منها بمجال علم النفس وعلم الاجتماع.

فكما جعل أرسطو الأخلاق في خدمة السعادة، فقد جعل إيمانويل كانط السعادة في خدمة الأخلاق اعتقادا منه بأن السعادة الكاملة ليست موجودة في الواقع ولا تعدو كونها تصور ديني مسيحي في الأصل، وأن البحث عن السعادة عنده يكون من حيث هو محصلة للأخلاق الفاضلة فحسب، إلا أن (أبيقور 341 / Épicure ق.م – 270 ق.م) يراها في امتلاك اللحظة الراهنة وهي الأقرب إلى ما يراه فيري ونفس ما يتبناه ضمن فلسفته حول مضمون السعادة، غير أننا نلحظ أن جل الدراسات الفلسفية حول السعادة تصنف في الأغلب في إحدى الاتجاهين، إما أنها تُفضَّل على الأخلاق والخير في سبيل تحقيق الذات وتلبية الرغبات والشهوات، أو أنها تكمن في تحقيق مصلحة الآخر والخير الأسمى بحيث أن: " أساس الأخلاق اللذة، فاللذة وحدها غاية الإنسان، وهي وحدها الخير والألم وحده الشر الذي يفر منه الإنسان ويتجنبه، (...) إن اللذة العقلية أكبر قيمة من اللذة الجسمية" (كامل محمد محمد عويضة، 1994، ص 11).

إذ كان (أبيقور / Épicure) هو خير من أثرى مبحث السعادة، أين اهتم بتحديد معيقات السعادة ضمن أمرين

إثنين: إذ تمثل أولها في الخوف من الآلهة، أما ثانيها هو الخوف من الموت، وهي واحدة من الرؤى الفلسفية الإغريقية القديمة التي كان لها الأثر البالغ على الفلاسفة المعاصرين على شاكلة لوك فيري والتي سنأتي على توضيحها فيما بعد، حيث نجد كيف أن أبيقور يرى أن الديانات هي المسبب الوحيد الذي يبقينا نعيش في قلق دائم، وسعي حثيث لإرضاء الآلهة والتقرب منها مع أنها لا تؤثر في حياتنا بشيء، أما الموت فلم نجربه بعد وأنه بموتنا لن نشعر بفكرة الموت وبالتالي التخلص من وهم خلود الروح وفكرة حياة ما بعد الموت: "فإذا جاء الموت فلا شعور، لأن الموت نهاية الشعور، ومن الحكمة ألا نخاف مما نعلم أنه عندما يجيئ لا نشعر. كذلك ذهب أبيقور إلى أنه لا معنى للخوف من الآلهة" (كامل محمد محمد عويضة، 1994، ص 10).

لذلك فقد قام بتقسيم اللذات إلى طبيعية، وطبيعية ضرورية، وطبيعية غير ضرورية ،وغير طبيعية وغير ضرورية، كما نوّه إلى اكتفاء الإنسان باللذات الطبيعية الضرورية وعدم سعيه خلف اللذات الأخرى لأنها لا تخدمه، وستقوده حتما للألم وعدم الرضا والتعب في السعي وراء طلبها، وإلى الاعتدال في طلب اللذة لبلوغ السعادة وهو ما يعرف في علم النفس اليوم بالهناء الذاتي: " فالسعادة من الموضوعات التي يصعب تحديد معالمها، وأين تبدأ وأين تنتهي بداية من تعريفها وانتهاءً بأنواعها وأشكالها وأساليب تحققها أو الحصول عليها. وعلى الرغم من أنها مطلب إنساني، توصف بأنها غاية يسعى لها الناس جميعا، فمن الصعب تعميمها" (بورتولوتي، 2013، ص07).

وما تجدر الإشارة إليه هنا أن ثمة خلطٌ كبير بين مفهوم السعادة وأدوات السعادة: "فالسعادة هي هذه الوضعية التي ينبغي أن يوجد منها شيء حقيقي عند كل إنسان كي نستطيع أن نضفي شرعية على وصفنا له بالسعيد إن السعادة حالة من الرضا يقبلها كل منا، بل هي حالة من الرضا المزمن" (دورتيي، 2009، ص 412).

وعليه فإن لحظة متعة ما لا تعني أنها السعادة بعينها، بينما ذهب (روبرت مزراحي / Robert Misrah 1926 م) إلى اعتبار الفرحة هي الرغبة التي تحفز الكائن البشري وليس المأساة كما قال بها (شوبنهاور/ Schopenhauer 1788 م – 1860) فبما أن الفلاسفة المعاصرون متأثرون به فإنه يرى أن اعتقادهم أن فلسفة التشاؤم أو التراجيديا هي الأكثر تعبيرا، وترجمة لأحزان هذا الزمن ومآسيه أما هو فيجد أن حقيقة الأمر هي العكس تماما ليس من أجل التضاد فقط بحيث: " أنه يتبادر أولا لأذهاننا سؤالا مهما وهو لماذا نحن جميعا بؤساء ولا نحارب البؤس والظلم والحرب؟ فنحن نسأل لماذا ولكننا قبلنا هذه الأمور واعتقدنا أنها بديهية في حين أنها ليست كذلك " (نادية بوجلال، 2022، ص 10)،كون أن السعادة تأتي من خلال الوعي بها لصنعها من الداخل، وليست متعلقة بالأشياء أو الأشخاص، ولهذا فهي تعتمد بشكل كبير على ذواتنا وإرادتنا المستقلة، وإذا كانت السعادة هي الحيز الأعظم الذي نسعى لتحقيقه على الدوام، والسعادة هي غايتنا الوحيدة وبما أن العقل هو الذي ينظم اللذات، فإنها تقودنا إلى الفضيلة لتكون هي مصدر سعادتنا.

أما لوك فيري يرى أن السعادة غير موجودة لدينا، وأن كل ما نملكه ونطلق عليه مسمى سعادة هو مجرد لحظات من الشعور بالفرح والغبطة، وليس حالة دائمة من السعادة جراء الأحداث المتسارعة والضغوط التي يفرضها علينا عصرنا الراهن، وأبرزها فكرة الموت والفقد التي تؤرقنا طوال الوقت ما يجعل من بحثنا عن السعادة أمرًا غير مجدي، لذلك لا تعدو أن تكون مجرد لحظات من الفرح التي تمر كما تمر لحظات الحزن، وعليه وجب على الفرد أن يعيش لحظة الفرح في آنها وتقبل فكرة أنه كائن غير موعود بالخلود أو دوام السعادة المطلقة، حتى ينعم بالطمأنينة والسكينة ويتغلب على مشاعر الخوف والقلق والاكتئاب، فكما تكون السعادة من داخلنا فالمشاعر الهدَّامة هي الأخرى تنبع من داخلنا، دونما أن تتدخل أي مؤثرات متعالية خارجة عنها، لأن العيش بهذا النمط من التفكير هو الحكمة بعينها.

وعليه فإن ما يراه لوك فيري حول مفهوم السعادة في أنها ليست هدفا ولا مقصِدا إنسانيا تتمحور عليه حياته، وإنما هي حالة الغبطة والسكون التي يصل إليها الفرد بمجرد أن يتعلم العيش بحكمة، حتى يتحقق له الخلاص الدنيوي ويضع حدا للخوف الذي ينتابه من التهديدات التي تحيط به على الدوام، كالحروب والتهديدات النووية أو الفيروسية، وحتى الانهيارات الاقتصادية المتكررة، أو فقد أحبتنا وحتى أننا نحيا في زمن تسلعنت فيه القيم والأفكار الإنسانية، وصارت السعادة لذة مرتبطة بمصالح الرأسمالية وليس الكينونة الإنسانية واضحت مجرد اقتناء نهم للبضائع وبات قدر السعادة مرتبطا بقدر ما نملكه من ماديات، وليس في هذا نكران لما يمكن للرفاه المادي من أن يمنحنا إيَّاه من غبطة امتلاكه، ولكن ليس لدرجة أن يفقدنا قدرتنا على التفكير في ماذا نملك ولماذا نملكه؟

فكثرة امتلاك الأشياء غير قادرة على إضفاء معنى لحياتنا وإنما العيش الحكيم هو من يفعل ذلك، بعيدا عن وهم الإعلانات التجارية أو التفسيرات الدينية، وهذا التصور في محبة الحكمة قديم قدم الفلسفة الأبيقورية، وهو ما حاول لوك فيري إحياءه من جديد وفق ما يناسب حاجات مجتمعه والعصر، إذا أجاز أن اللذة قد تكون سببا تصنع السعادة، لكنها من دون معيار عقلي هي سبب للشقاء الإنساني بل وتستعبد إرادته إلى حد بعيد حتى لو اختار حياته بكامل إرادته وحريته لن يمنعه ذلك من أن يتعس ويشقى بحيث: " من هنا نرى كيف أن الشيء الذي بمقدوره أن يسعدنا، وهو في هذه الحالة تمتعنا بالحرية، هو ما يحيلنا تعساء أيضا- وهي الفكرة التي أعتبرها، كما تفهمون الآن، المنطق وراء كل تفكير جاد في مسألة السعادة" (لوك فيري، 2018، ص 117).

3.**الخلاصة**: إن الذهنية العلمانية التي فرضت سيطرتها على الفكر الفرنسي بشكل كبير كان لها الأثر البالغ على نوعية الإنتاج الفلسفي ولوك فيري واحد من مفكري هذا العصر الذين تشربوا قدرا كافيا من العلمانية وكانت كتاباته تترجم هذا التأثر، وكان اهتمامه الكبير بقضايا المجتمع المعاصر بكافة أزماته وتقلباته، بخاصة الأخلاقية منها والتربوية وكذا البيئية وحتى السياسية.

كما كان له رأي خاص فيما تعلق بأخلاقيات الفرد في تعامله مع ذاته، وكيفية احترام هذه الذات وتقديرها بعيدا عن أي تقديس لأي أفكار خارجة عنها أو متعالية عليها، وكيف يمكن لمشاعر الحب وحرية الاختيار ومطلقية الإرادة أن تجعلنا نشعر بغبطة حيال ما نقوم به ونختاره بأنفسنا.

كما أثار النقاش حول التدخلات الطبية والتعديلات البيولوجية التي يمارسها العلم بحجة التحسين الجيني، التي كان لها نصيب من هذا الطرح، من حيث تأكيده على حماية النوع البشري وكذا الحيواني وحتى النباتي، وكل ما يمد لهذا الكون بصلة مباشرة من مخاطر التقنية وطغيان الأطماع الرأسمالية، لتحقيق مزيد من المكاسب من خلال الترويج لمفاهيم مغلوطة عن التعديلات الجينية.

أما من حيث حديثه عن القيم الأخلاقية كسلوك فقد ذكرنا كيف أنه ميز بينها وبين القيم الروحية، وأولى اهتماما خاصا بهذه الأخيرة، كما سعى جاهدا إلى تلقينها عن طريق التفكير والتأمل الفلسفي الصحيح حتى بالنسبة إلى أولئك الغير مشتغلين أو مهتمين بالفلسفة، وذلك عن طريق تعلم فن العيش بحكمة من خلال الفلسفة، إذ كانت مؤلفاته ولقاءاته الصحفية وحتى مهنته كوزير سابق للتربية بفرنسا وأستاذا محاضرا بجامعاتها كانت نافذة له للترويج لأفكاره حول دور الفلسفة في المجتمع وفي حلّ مشاكله، كما فعل الإغريق قديما على حدّ تعبيره.

كما سعى فيري لطرح عدد من الحلول حول مشكلات عصره التي تصب جلّها في المعاملات الأخلاقية، بين أبناء المجتمع الواحد وحتى مع غيره من المجتمعات الأخرى، أو مع الفرد في حياته اليومية عن طريق الفلسفة والتفلسف، كسبيل علماني وعقلي خالص لتحقيق الخلاص الإنساني من هذا التيه الذي يعانيه، في ظل غياب المعنى وأفول حظوة المقدس وما نمر به من تعقيدات العصر، مؤكدا إلى جانب ذلك بضرورة إشاعة الفلسفة إن صح القول حتى بين أولئك الغير المهتمين بها.

كما تطرق أيضا إلى طرح إشكالية السعادة حول مفهومها وفي كيفية تحصيلها، وهو ما عبَّر عنها بمصطلح الغبطة إذ وصفها بأنها لحظات متقطعة في حياة الفرد، وليست دائمة لكونه كائن معرض للموت والفقد وهو مدرك تماما لهذه الحقيقة الحتمية، والتي لا مفر له منها مهما كان على قدر عال من الأخلاق، وأن ما يروَّج عن السعادة من خلال الإعلانات كمادة جاهزة من خلال الاستهلاك النهم والمفرط للمواد والسلعة المعروضة، وامتلاك أكبر قدر منها هو ما يجعلنا سعداء، أو كما تصورها لنا الأديان التوحيدية أو البوذية في أن مفهوم السعادة أو الخلاص الإنساني من أزماته النفسية والأخلاقية.

كما سعى فيري إلى توضيح أن تحقيق العيش الرغيد لا يكون عن طريق الإيمان بالمتعاليات، أو في حياة أخروية تكون ما بعد الموت وإنما يكون من خلال امتلاك اللحظة الراهنة، لذلك لا يجب التفكير فيما يكون بعد الموت فنحن كائنات فانية، وليست بمخلدة ولا نملك سوى الآن لذا وجب الاهتمام بما سنقدمه في المدة التي سنحياها وليس بما سيكون بعد فنائنا، لأننا لا نملك أي جواب منطقي عن فكرة الخلود بعد الموت وحماية كوكبنا ومجتمعاتنا لتكون مكانا أفضل للعيش وأكثر أمانا واستقرارا وحكمة لأحبتنا ممن يأتون بعدنا.

تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح

- بيبليوغرافيا

1. أندريه كونت سبونفيل، (2005)، هل الرأسمالية أخلاقية؟، تر: بسام حجار، بيروت، دار الساقي للنشر.

2. أندريه لالاند، (2001)، موسوعة لالاند الفلسفية، بيروت، عويدات للنشر.

3. إريك فروم، (2003)، الإنسان المستلب وآفاق تحرره، تر: حميد لشهب، الرباط، شركة نداكوم للنشر.

4. بيار أنطوان شاردل، (2018)، أي أخلاق للزمن الحاضر: قراءة زيغمونت باومان، تر: محمد جديدي، مصر، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية.

5. جاكلين روس، (2001)، الفكر الأخلاقي المعاصر، تر: عادل العوا، بيروت، عويدات للنشر.

6. جاكلين روس، (2011)، مغامرة الفكر الأوربي، تر: أمل ديبو، دبي، دار الكلمة.

7. جان فرانسوا دورتيي، (2009)، فلسفات عصرنا الحالي، تياراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، تر: إبراهيم صحراوي، الجزائر، منشورات الاختلاف.

8. ربيع ميمون، (1980)، نظرية القيم في الفكر المعاصر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

9. سعيد مراد، (2001)، السعادة عند فلاسفة الإسلام، مصر، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية.

10. عبد السلام بن عبد العالي، (2012)، الفلسفة فنا للعيش، المغرب، دار توبقال للنشر.

11. عبد الوهاب المسيري وآخرون، (2003)، الحداثة وما بعد الحداثة، دمشق، دار الفكر.

12. عبد النور نابت، (2012)، الإسلام واللائكية في الخطاب الفلسفي الفرنسي المعاصر، البويرة، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية.

13. عبد الوهاب شعلان، (2016)، قراءة في كتاب لوك فيري de L'amour, une philosophie Pour le xxI، الجزائر، مجلة بولوس.

14. كريمة دوز، (2016)، الأخلاق بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية، مصر، دار الكتاب للنشر.

15. كامل محمد محمد عويضة، (1994)، أبيقور مؤسس المدرسة الأبيقورية،

لبنان، دار الكتب العلمية.

16. لوك فيري، (2002)، الإنسان المؤله أو معنى الحياة، تر: محمد هشام، المغرب، دار أفريقيا الشرق.

17. لوك فيري، (2016)، تعلم الحياة، تر: سعيد الولي، أبوظبي، دار الكلمة.

18. لوك فيري، وآخرون (2015)، أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، بيروت، دار التنوير.

19. لوك فيري، (2018)، مفارقات السعادة، تر: أيمن عبد الهادي، دار التنوير.

20. ليزا بورتولوتي، (2013)، الفلسفة والسعادة، تر: أحمد الأنصاري، القاهرة، المركز القومي للترجمة.

21. محمد أمين بن جيلالي، (2021)، الإتيقا نقد المفهوم وتحولاته في العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية، العراق، دار العتبة العباسية للنشر.

22. محمود حيدر، (2019)، ما بعد العلمانية مقاربة تحليلية نقدية لمنشأ المفهوم ومآلاته، لبنان، دار العتبة العباسية المقدسة.

23. نادية بوجلال،(2022)، الحرية إبداع عند روبرت مزراحي، الجزائر، مجلة مشكلات الحضارة.

24. يورغن هابرماس وآخرون، (2013)، جدلية العلمنة العقل والدين، الكويت، جداول للنشر.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

حاج شريف ابتسام، شارفي عبد القادر (2023) إتيقا السعادة وفلسفة الخلاص عند لوك فيري، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 15، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات: 93-103.